

عوامل تطور المراكز الاستيطانية بمنطقة غليزان (بالجزائر) فيما بين 1850-1900

أ.ة: ليلى بلقاسم

عضو باحث بمخبر الدراسات المغاربية

جامعة وهران 1- أحمد بن بلة

مقدمة

شكلت منطقة غليزان حقلا للتجارب الاستيطانية في القطاع الوهراني شملت انتزاع الأراضي بمختلف الصيغ وتثبيت العديد من العائلات القادمة من الميتروبول وبعض كولون المناطق المجاورة الراغبين في توسيع ملكياتهم وتضخيم ثرواتهم من ذلك النصوص التشريعية ودعم المعمرين ماديا ومعنويا بهدف ترسيخ استقرارهم فكانت مدة الخمسين سنة كافية 1850-1900م كافية للمحتل الفرنسي لإعداد الإجراءات والقوانين لتملك أخصب الأراضي بالمنطقة وإخضاع القبائل والعائلات الكبرى لتصبح منطقة غليزان نموذجا للفكر الاستيطاني والاستغلالي.

أولا: الاستيطان والممارسة بالمنطقة

إنككت المراكز الاستيطانية النواة الأولى لنمو الاستيطان وضمن استمراره، من أجل تحويل الجزائر إلى مستعمرة فرنسية، من خلال تثبيت الكولون وذلك بتوفير كل الشروط الضرورية للمستوطنين كالحوافز والتسهيلات المادية والمعنوية، في شكل قروض وامتيازات

أرضية مجانية وهيئتها بالبنى التحتية الموجهة في الغالب لصالح هذه الفئة الدخيلة على المجتمع الجزائري. ذلك أنه حسب ما ورد عن مكماهون (Mac Mahon) فلن " تنمية البلاد ارتبطت بالتوسع الاستعماري القائم على توفير الأراضي للكولون بما فيه الهياكل القاعدية كالطرق والسدود. " ⁰¹

نشط الاستيطان بمنطقة غليزان في بداية التأسيس وخصوصا في الفترة الممتدة ما بين 1870-1900 مع أن البذور الأولى له ترجع إلى سنة 1850م وذلك من خلال خلق القرى الاستيطانية، وتوسيع القديمة منها ومتابعة أشغال التهيئة كما هو مبين في الجدول الذي يمثل أهم المراكز الاستيطانية التي أنشأت ووسعت بالمنطقة ما بين 1857-1900

المراكز الاستيطانية	تاريخ النشأة	المساحة بالهكتار	التوسيع	المساحة بالهكتار
غليزان (Relizane)	1857	4.000	1857	1.062
يلل (Hillil)	1859	1.725	1858	3.051
عمي موسى (Ammi Moussa)	1859	1.050	1880	924
زمورة (Zammorah)	1864	1.995	1879	692
وادرهيو (Inkermann)	1870	2.652	1877	1.166
مفداس (Mendes)	1871	2.441	1879	1.166
جديوية (Saint-Aimé)	1872	2.443	1879	1.166
الحمادنة (Hamadna)	1876	837	1892	235
واد الجمعة (Ferry)	1878	1.091	1896	2.361
المطمر (Les Silos)	1878	1.091	1894	775

المصدر:

Xavier, Yacono, La Colonisation des plaines du Chélif, Tome 02, Alger, 1955, p336.

وازداد الاستيطان أكثر نشاطا مع فترة الجمهورية الثانية وعودة "الاستيطان الرسمي بهدف تحقيق إعمار ريفي فرنسي من خلال التنازل المجاني عن الأراضي، بشرط الإقامة الإجبارية"⁰². إذ أن الحكومة في الجزائر "وزعت سنويا امتيازات من 30 إلى 40.000 هكتار من الأراضي إلى غاية 1882م، وابتداء من هذه الفترة لم تكن تشمل الامتيازات إلا ما بين 10 إلى 12.000 هكتار سنويا"⁰³. تزامن هذا مع توافد العديد من العائلات القادمة من الألزاسواللورين (Alsace-Lorraine) والتي نشطت معها زراعة الكروم. ففي سنة 1870 ماستقطبت جديوية (Sainte-Aimé) وحدها ما بين 10 إلى 20 عائلة، إلى جانب توافد عائلات من الجنوب الفرنسي بالخصوص من منطقة الرون - الألب (Rhône-Alpes) والذين تحولوا إلى مالك حقيقيين من خلال الدعم غير المحدود .

ويتضح من خلال الجدول المرفق حجم الامتيازات المخصصة للعائلات القادمة من الألزاسواللورين فمعظمهم من الفلاحين إذ لا يملك أغلبهم المصادر المالية الكافية، حيث تم توزيعهم بالخصوص في مناطق سيدي محمد بن علي (Renault) وجديوية ووادرهيو وبلإلى جانب الحمادنة ووادي الجمعة، شملت الحصص المقدمة حصص بناء، بساتين، كروم وأخرى مخصصة للزراعة:

الاسم واللقب	المهنة	تشكيل العائلة	المصادر	محل الإقامة	المساحة والحصص المخصصة
Badina Joseph	مزارع	متزوج أب ل 07 أطفال	4000 فرنك	يلل	28 هكتار و 62 أرو و 70 سنتيار
Hagré François	يعمل في مجال الكروم	متزوج أب ل 3 أطفال	12500 فرنك في شكل وسائل	عين كرمان وادريو	29 هكتار و 16 أرو و 20 سنتيار شملت: حصة بناء: 09 أرو و 70 سنتيار. حصة بستان: 16 أرو و 50 سنتيار. حصة كروم: 14 هكتار و 50 أرو. حصة زراعية: 14 هكتار و 50 أرو
Klein – Pétér Jean.	مزارع	متزوج وأب ل 2 من الأطفال	300 فرنك	سانت ابيي	22 هكتار و 33 أرو و 53 سنتيار شملت: حصة ارضية للبناء: 10 أرو و 30 سنتيار حصة بستان: 31 أرو و 33 سنتيار حصتين للكروم: 98 أرو و 90 سنتيار 96 أرو. حصة زراعية: 19 هكتار و 97 أرو.
Ott Antoine	مزارع	متزوج		رونو	25 هكتار و 50 أرو و 20 سنتيار شملت: حصة بناء: 8 أرو حصة بستان: 21 أرو و 80 سنتيار حصة كروم: 3 هكتار و 50 أرو و 40 سنتيار حصة زراعية: 21 هكتار و 85 أرو.

المصدر:

MM39, Concessions attribuées aux Alsaciens –Lorrains.

ثانيا- أهم المشاريع الاستيطانية بالمنطقة :

تحولت منطقة غليزان ما بين 1850- 1900 إلى ورشة عمل فقامت العديد من المناقصات المتعلقة بالأشغال العمومية والتي كانت تعود فوائدها على الكولون ولصالحهم. بهدف ربط وشد المستوطنين

بالأرض ودعما للاقتصاد الفرنسي ومن أجل تسهيل التنمية وضبط الأمن في البلاد .

أ-الطرق

نظرا لأهمية الطرق في دعم الاستيطان انطلاقا من أن "مستعمرة بدون طرق أو مع طرق قليلة لا يمكنها النمو بسرعة بما في ذلك السكان فتتعطل الثروة بالخصوص في بلاد جديدة"⁴. كما أنها تتيح للقوات الاستعمارية التحرك بسرعة والقضاء على الثورات، إلى جانب كونها أداة اقتصادية تخدم المصالح الاستعمارية ووسيلة استراتيجية هامة. من هنا جاءت أهمية إنجاز الطريق الوطني رقم 04 وهران الجزائر بطول 410.9 كلم، وقد تم دعم ذلك ووفقا لقانون 25 مارس 1875 بإقامة طريق غليزان إلى غاية الحدود المغربية مرورا بمعسكر وسيدي بلعباس إلى تلمسان بطول 308.5 كلم⁰⁵.

وعلى طول الطريق الوطني رقم 04 الموازي للسكة الحديدية تم إنشاء المراكز التالية من الغرب إلى الشرق : بلل - المطمر - غليزان - وادي الجمعة - الحمادنة - جديوية - واديهيو باعتبارهم مراكز طرقية (des centres routiers) دعما للاستيطان وتم ربط هذه المراكز بالنقاط الأخرى عن طريق طرق فرعية ورئيسية، كربط واديهيو بعبي موسى مرور بلحلاف وعبي موسى بالشلف وتيارت، وغليزان بتيارت عن طريق زمورة وسيدي محمد بن علي بواديهيو مرورا بمازونة. وفتح طريق سنة 1849م مستغانم الشلف على طول 84 كلم مرورا بالمنطقة⁰⁶. كان الهدف من ذلك فك العزلة التي كانت تقف عقبة أمام الاستيطان ولأهمية الطرق في نمو التجارة وسهولة الاتصال وربط المناطق الأخرى بأسواق غليزان وواديهيو ... وشحن ونقل المحاصيل والمنتجات (الحبوب والصوف ... إلى الموانئ خاصة ميناء مستغانم من

جهة لتنشيط الاقتصاد الكولونيالي، ومراعاة للجانب الأمني من أجل سهولة التدخل في حالة أي خطر.

كما تدعم ذلك بشبكة السكة الحديدية والتي صممت لأغراض عسكرية واستعمارية منها الخط الرابط بين الجزائر- وهران أنجز ما بين 1871-1892 إذ يعد نقطة تحول هامة في دعم الاستيطان بالمنطقة، ذلك لأن الرؤيا الاستعمارية كانت قائمة على أن السكة الحديدية ستضمن "النقل السريع للقوات العسكرية وتسمح باستتباب الوضع الأمني في البلاد كما تؤمن في نفس الوقت الأمن للمستوطنين"⁷.

أوكلت مهمة انجازه لشركة باريس- ليون المتوسط (Lyon- Paris- Méditerranée) التي كلفت بالأشغال في المنطقة الغربية، وقد تم إنشائه ابتداء من 1857م بطول 426 كلم "وقد عرف المشروع والذي انطلق فعليا 1867م صعوبات تقنية ومعوقات طبيعية إلى جانب تزامن انجازه في فترة تزامن معها انتشار الأوبئة. وفي سنة 1871م فتح الخط الحديدي بين وهران الجزائر عبر غليزان لحركة المرور"⁸. وقد تم دعمه بخط السكة الحديدية مستغانم- غليزان فتح في 15 ماي 1888م وباتجاه تيارت مرورا بزمورة بتاريخ 20 فيفري 1889⁹. وقد كلفت الشركة الفرنسية الجزائرية بإنشائه بطول 200 كلم بهدف نقل وشحن منتجات السرسو الزراعية، إلى جانب الثروات الخشبية وتأمين المنتجات التي كانت تنقل في الأصل إلى الوطن الأم- فرنسا.

ب- المياه

وبمأن المياه شرط حيوي في إقامة المراكز الاستيطانية وذلك لضمان السلامة الصحية وازدهار المستوطنات، بالخصوص وأن المنطقة تتميز بالجفاف وتذبذب وعدم انتظام التساقط ونقص المياه رغم كثافة الأودية إلا أنها هي الأخرى موسمية وغير منتظمة من حيث منسوب

المياه. فقد تم القيام بالعديد من أعمال التهيئة من خلال شق القنوات وبناء السدود التحويلية والخزانة من أجل إنعاش القطاع الزراعي الكولونيالي. وقد أوكلت الأعمال في البداية للهندسة العسكرية كإشرافها على انجاز سد مينا (Mina) حيث سخرت فيه اليد العاملة الجزائرية. كما كلفت مصلحة الجسور والطرق (Service de Ponts et Chaussées) بحفر الآبار من أجل تموين السكان بالماء الشروب بجديوية ووادي الجمعة ... إلى جانب تهيئة المنابع والمصادر المائية حيث تطلب تهيئة منبع عين قاتوو (Ain Gatou) بالمطمر 26.000 فرنك¹⁰ وتحويل القنوات. ونظرا لعجز الدولة على القيام بالأشغال فتح المجال للرأسمال الخاص بإيعاز من مكماهون (Mac Mahon) وتم فتح العديد من المناقصات أهمها : قيام الشركة العامة الجزائرية S.G.A لفريمي (Frémy) وتالابوا (Talobot) بعد الرحلة التي وجهت إلى القطاع الوهراني، ومنها إلى منخفضات بلل ومينا ووادي جديوية ووادرهيو، لتشييد المواقع المخطط لها كسدود مستقبلية¹¹. وفعلا تم بناء سد جديوية والذي صنف من الجيل الأول ما بين 1857-1877 بقدرة استيعاب 700.000 م³¹² وتكلفة 26.0000 فرنك، ما يسمح بري حوالي 600 هكتار خلال فصل الشتاء و100 هكتار في فصل الصيف¹³، باعتبار المنطقة تحتوي على مساحات سهلية واسعة ومن أهم محطات التعمير.

ما يلاحظ أن أغلب أشغال التهيئة والتجهيز جاءت تحت ضغط وشكاوي الكولون احتجاجا عن نقص المياه لبي الملكيات الزراعية والتي تعدت مئات الهكتارات، بالخصوص في منطقة مينا ومن ذلك الاحتجاج المشكى إلى محافظ وهران بتاريخ 13-02-1863 من طرف المعمر برلينغ (Bérin) مزارع بغليزان، حيث خصصت له ملكية 59

هكتار و 25 أرو 80 سنتيار منذ جانفي 1858 م بقيت منها 20 هكتار غير مسقية فطالب بإنشاء 04 خزانات للسقي حول قنوات الري بغليزان وقدرت النفقات بـ 4.000 فرنك حسب رأي مهندس الجسور والطرق.¹⁴

ومنها أيضا احتجاج المعمر قورني (Gourany) بغليزان في رسالة موجهة إلى الحاكم العام بتاريخ 19-08-1862 حول نقص المياه المستعملة في مينا من حيث التوزيع والتي تعود أسبابه حسب المعمر إلى الإفراط في استخدام المياه في الجزء الأعلى من واد مينا، وإلى استغلاله من طرف أهالي المنطقة مما أدى إلى تناقصه وتوقفه في الجزء الأسفل.¹⁵

استمر الصراع على المياه بين سكان المنطقة والمستوطنين بالخصوص في منطقة مينا العليا حيث تم تلفيق العديد من التهم في مقدمتها الاستغلال المفرط لمياه الري المخصصة للمحاصيل الهزيلة للمزارعين الجزائريين. وتحطيم الصمامات وتحويل مياه الوادي لصالح أراضيهم. مما تسبب في فقدان الأوروبيين لمحاصيل واسعة بالخصوص الحبوب جراء نقص المياه. وهي، تهم تفنن المعمرين في حياكتها لقيت المساندة من طرف الإدارة الاستعمارية دعما للمشروع الاستيطاني يدخل ضمن خلق المضايقات، بهدف تجريد وإبعاد الجزائريين عن أراضيهم وهو أسلوب لا يقل خطورة عن أساليب تفجير وتهميش الأهالي بهدف سلب العقار. الأمر الذي أدى إلى تشكيل الجمعيات والاتحادات المائية لاستعادة محيط منطقة الري لصالح أصحاب الملكيات الزراعية. ومنها ما بعد وقوف محافظ وهران على الوضع تم حل قرار 05-13-1868 الذي يؤجر كمية من المياه للسكان المنطقة من الجزائريين 10.5 في الثانية للهكتار¹⁶. ثم جاء قرار 27-07-1881 الذي خفض إلى النصف حجم المياه بالنسبة للجزائريين خلال فصل الصيف والذي

عاد بمنافع على محاصيل المالكين الأوروبيين في سهل غليزان غير أن الكولون - وضمن خلق المضايقات - اشتكوا تكسير فتحات مأخذ المياه من طرف الجزائريين¹⁷.

ج- المؤسسات المالية

ودعما للمشروع الاستيطاني لعبت المؤسسات المالية دورا هاما من خلال منح القروض والمال وتسهيلات تصب في صالح الكولون بالخصوص في المجال الزراعي. وقد تم دعم ذلك بخلق بنك الخصم (Comptoir d'Escompte) بغليزان سنة 1880م بعد موافقة الحاكم العام من خلال مسابقة على مستوى بنك الجزائر وبعض كولون وتجار غليزان¹⁸ أهمها المصرف العقاري الفرنسي والقرض العقاري والزراعي الجزائري، منها تقديم للمعمر ميشال جون أرجونس القاطن بجديوية (Saint-Aimé) قرض بقيمة 5.000 فرنك بشروط تخدم مصالح المعمر ذاته والممضي من طرف ممثلي الشركة بواسطة المونق ألفونس سيرات (Alphonse Sirat) بغليزان بتاريخ 05 نوفمبر 1883.¹⁹

ومن أجل إعطاء دفع قوي للحركة الاستيطانية نشط دور الشركات الرأسمالية في تهيئة المساحات الزراعية واستصلاح الأراضي والقيام بعمليات التوطين. على رأسها الشركة العامة الجزائرية (Société Générale Algérienne) التي استفادت بمقتضى مرسوم 06-01-1869م بموجب المادة الرابعة بأراضي زراعية بسعر فرنك للهكتار، كما "حصلت في 1867م بموجب عقد توثيقي في 08 جوان على 1.285 هكتار من أراضي أملاك الدولة (Domaine) على الضفة اليسرى لواد مينا"²⁰. عملت الشركة العامة الجزائرية بموجب ذلك على تقديم التسهيلات بهدف دعم الاستيطان بالمنطقة، حيث أنها فتحت مناقصة بتأجير الأراضي بالضفة اليسرى لواد مينا بغليزان شملت 28 حصة

أرضية بمساحة 1.538 هكتار و 83 أر و 92 سنتيار بقعد توثيقي ممثلة في مدير الشركة بالنيابة السيد لوزي (Lozy) بتاريخ 09-07-1869 أمام الموثق أندري بيران (André Prérin) أمين المفوضية المدنية بجليزان المكلف بمهمة موثق لمدة 10 أشهر من 1 أكتوبر إلى غاية 31 جويلية 1870 شملت 28 حصة أرضية²¹. وقد باعت الشركة العامة الجزائرية 45 ألف هكتار للنقيب كورتلوم Caurtellement وفي 1873م إلى الجنيرال كلانشو Clinchant²².. ووفقا لبرنامج الاستثمار الخاص بالشركة العامة الجزائرية في المجال الزراعي ما بين 1876-1877 خصصت بعمالة وهران 4.521 هكتار بصفة الكراء والشراء وضعت تحت تصرف الفلاحين الأوروبيين والأهالي، ابتداء من موسم 01 أكتوبر مست الأراضي الواقعة بنواحي غليزان على طريق السكة الحديدية بمساحة 700 هكتار ب 12 كلم عن المدينة، تؤجر لمدة ثلاث سنوات لحصص أرضية ما بين 50 إلى 500 هكتار ومنح الفلاحين دفعات مسبقة للبذور وتسديدات عن المحصول تدفع الفوائد لمدة 10 سنوات إلى جانب عقود إيجار لمدة أقصاها 06 سنوات لمساحات أرضية أقل من 150 هكتار ومباني استثمارية بحوالي 50 فرنك للهكتار. كما وضعت الشركة تحت تصرف المستوطنين بعض الحصص المستقلة في القرية التي قامت ببنائها وسلمت لكل مشتري حصة ريفية بمساحات مختلفة وحصة حضرية تحتوي على منزل أرضي مشكل من قطعتين وحظيرة بقيمة 2.500 فرنك ب 200 فرنك للهكتار²³.

ثالثا- نتائج الاستيطان الاوروبي بالمنطقة

ومع ذلك فرغم الجهود المبذولة في مجال الاستيطان إلا أن أغلب المراكز الاستيطانية بالمنطقة تم إقامتها في ظروف غير صحية، المقترنة

بالظروف الطبيعية التي لم يتكيف معها الوافدون الجدد وهذا ما تذهب إليه أغلب التقارير الفرنسية رغم أعمال التهيئة والتجهيز.

والجدول التالي يبين جهود الإدارة الاستعمارية في تهيئة الأقاليم بالمنطقة من خلال التشجير وإقامة المشاتل الزراعية من أجل تحقيق السلامة الصحية لبعض المراكز الاستيطانية:

البلدية	الأراضي المعتمدة	مساحة الأراضي	الحقائق المنشأة	نوعية الأشجار	وضعية الأشجار	ميزانية البلدية	الدولة	العمالة	المجموع
غليزان	أراضي زراعية	2 هكتار	حداائق صنوبر انشلت منذ أربع سنوات	الصنوبر الحلبي	وضعية جيدة	462.1 فرنك و90 أر		000.2 فرنك	462.3 فرنك
جديوية	على حواف قنوات الري			الكاليتوس	وضعية جيدة	000.1 فرنك			000.1 فرنك
عمي موسى	في أراضي طينية كلسية في منحدر	8 هكتار	تم انشاء حديقة في الأراضي البلدية	الصنوبر الحلبي البلوط الخروب اشجار الفلفل .		748.2 فرنك و50 سنتيم	000.4 فرنك .		748.6 فرنك و50 سنتيم.
رونوا - سيدي امحمد بن علي	تربة حمراء، حصوية، وطينية، رملية .	4 هكتار و45 أر و20 سنتيار		الصنوبر، الصمغ، اللوز، الكاليتوس، الخروب، الفلفل، التوت .	ردنية وفقيرة.	591.1 فرنك و40 سنتيم	495 فرنك و50 سنتيار		026.2 فرنك و90 سنتيار.
يلل	أراضي رملية كلسية	4 هكتار و6 أر	حديقة ب 30 أر	الصنوبر الحلبي، الزيتون، الخروب، التوت، الفلفل .	متوسطة	591.1 فرنك و40 سنتيم	495 فرنك و50 سنتيم		026.2 فرنك و90 سنتيم.

المصدر:

A.N.O.M : GGA, Oran, 1M53, Tableau Résumant les Travaux des Reboisement de Création des Pépinières entrepris dans la Département d'Oran.

واستمرت عمليات التجفيف ومد قنوات الصرف نظرا لانعكاسات المناخ والظروف الطبيعية غير الملائمة ووجود المستنقعات حيث تم تسجيل العديد من حالات الوفاة وهذا ما يوضحه الجدول التالي لمركز المطمر:

السنوات	عدد المواليد .	الوفيات
1882-1878	25 مولود	25 متوفي
1887-1883	31 مولود	31 متوفي
1892-1888	28 مولود	18 متوفي
1897-1893	34 مولود	17 متوفي
1902-1898	30 مولود	36 متوفي .

المصدر: أرشيف المطمر. A.C.M.

ومن أجل تحسين الأوضاع لصالح الكولون عملت الادارة الاستعمارية على تخصيص أموال ضخمة، عادة ما كانت تدفع من كاهل وعائدات الضرائب والغرامات المالية التي يدفعها الجزائريين لتجفيف المستنقعات وتحويلها إلى مساحات زراعية إلى جانب جلب العديد من أصناف الأشجار والقيام بالتشجير للحد من الأمراض والأوبئة بالخصوص حتى المستنقعات وتلطيف المناخ المتميز بالحرارة بالتحديد في فصل الصيف.

ومن جانب آخر عملت الإدارة الاستعمارية على دعم المحاصيل الزراعية المخصصة للمعمرين في مقدمتها الحبوب ومن ذلك تقديم الحاكم العام بالجزائر مساعدة بـ 400 كلف من القمح اللين ووزعت على 20 مالك بغليزان المخصصة للبذر وبسبب المحصول الرديء تم إرسال دفعة أخرى بـ 60 كلف ووضعت في أكياس 20 كلف لصالح Rufer jean:

²⁴ Saubert Jules, Gaubert phillipe, Richelleblance

والجدول التالي يمثل كمية الحبوب بأنواعها التي دخلت إلى سوق غليزان من 01 جانفي إلى 30 جوان 1890.

الحيوب	الكمية / بالقنطار
القمح اللين	7800
القمح الصلب	161.300
الشعير	197.000
القول	1.600
الذرة	700
السورخو	. 900

المصدر:

-Bulletin du Comice agricole de Relizane, N16,deuxième semestre1890,P26

وفي المقابل انتهج الاستعمار إلى جانب ذلك سياسة زراعية قائمة على ادخال بعض المزروعات على حساب الزراعة الأساسية المعيشية القائمة على الحبوب، مما أدى إلى تخريب القطاع الزراعي التقليدي حيث سادت زراعة الكروم والحمضيات والزيتون إلى جانب بعض المحاصيل الصناعية كالتبغ والقطن والكتان والخروع... حيث حققت زراعة الكروم والتي لقيت اهتماما من طرف الكولون ودعما وتشجيعا من طرف السلطة الأوروبية، وهذا ما نقرأه في تقرير السيد بوشردات أستاذ بكلية الطب بباريس الموجه سنة 1880 إلى جمعية باريس: "من خلال زراعة الكروم التي ستسود المستوطنة سيتحقق مستقبلا مزدهرا ليس ببعيد، مما سيؤدي إلى استقرار الاحتلال بالجزائر، هذه الزراعة ستجلب للكولون الجدد والسكان المحليين العمل والرخاء وستختفي معوقات التقدم التي تشكل أكبر عقبة في مقدمتها أمراض المستنقعات. وسيعم التطهير والثروة فزراعة الكروم ستعطي كل ما هو متاح من أجل مستوطنة مزدهر"²⁵. فخلال خلق أو توسيع أي مركز استيطاني يتم إنشاء حصص للكروم فعلى سبيل المثال اقترحت لجنة المراكز أثناء مشروع توسيع عين كرمان (Inkermann) سنة 1876م في تقريرها تخصيص 45 هكتار من الأراضي الزراعية للكروم وقد تزامن هذا مع

استقرار 12 عائلة أوروبية²⁶. وهذا ما تكشف عنه الاحصائيات المرفقة في المساحات المخصصة للكولون بالهكتار في كل اقليم سنة 1893 : غليزان Relizane وقد بلغت المساحة المخصصة للزراعة 13.059 هكتار خصص منها 250 هكتار تتراوح درجاته ما بين 10° إلى 12° بما فيه الكفاية²⁷.

المطمر Clinchant من مساحة 1.901 هـ خصصت 53 هـ لزراعة الكروم²⁸.

يلل : Hillil من مساحة 161.787 هـ خصصت 225 هـ ذو انتاجية وذو نوعية جيدة بدرجة ما بين 11° إلى 12°²⁹.

زمورة : Zammorah من مساحة 174.080 هـ خصصت 110 هـ لزراعة الكروم بدرجات ما بين 12° إلى 13°³⁰.

وما تجدر الاشارة إليه هنا أنه خلال الفترة الممتدة ما بين 1870-1880 نشطت الهجرة الاسبانية إلى منطقة غليزان من شبه جزيرة ايبيريا " ولقد انجذبوا نحو غليزان ذاتها والمشابهة لبلدهم حيث يمكن تقليم الكروم كما أنهم مستصلحون للأراضي ببراعة ومقتلعي الحطب كما عملوا في مجال الفحم³¹."

إلى جانب بعضا من العائلات الايطالية من منطقة بي موني Piémontais شمال غرب ايطاليا بالخصوص من مدينة تيران Turin ومنها المقاول بيليا Bellia والذي نشط في حقل بناء العمارات والأشغال العامة وشركات البناء وصناعة البلاط. لقد نتج عن ذلك مردودا هاما في انتاج الكروم في ظل وجود المناخ الملائم إلى جانب تكيفها مع التربة واستخدام الوسائل الحديثة، حيث لقيت دعما من طرف الادارة الاستعمارية خدمة للاقتصاد الفرنسي بالمال والقروض بالخصوص في المنطقة الممتدة بين يلل والمطمر وعلى طول جبال الظهرة في منطقة

سيدي محمد بن علي Renault حيث أصبحت خمور المنطقة تنافس خمور المناطق الساحلية من حيث الجودة والنوعية الممتازة، والجدول التالي يمثل أهم البلديات المشاركة في المسابقات التي كانت تنظمها الاتحادية الزراعية بغليزان :

البلديات	عدد مزارعي الكروم	مساحة الكروم	العارضين
غليزان	36	250 هكتار.	.01
يلل	29	137 هكتار.	03
زمورة	23	110 هكتار.	00
منداس	11	62 هكتار.	00
واد الجمعة	07	22 هكتار.	00
المطمر.	12	53 هكتار.	.00

المصدر :

-Bulletin de comice agricole de Relizane , N :20, Année 1893, p23.

وقد تدعم هذا بإنشاء التعاونيات والاتحادات الفلاحية ومن ذلك الجمعية الزراعية بغليزان والتي يعود تأسيسها الى سنة 1875 حيث جاء في قانونها التأسيسي المادة الثانية: "إن الهدف من جمعيتنا هو ما ينص عليه برنامج أشغالنا حيث لا تنحصر مهمتها في تشجيع وتقديم التعويضات للفلاحين ومربي الماشية يجب أيضا الدفاع عن المصالح الفلاحية لفرع غليزان ونشر الأساليب الزراعية الأفضل والعمل على اختيار مزروعات جديدة ودعم التشجير." ³²

غير أن هذا انعكس سلبيا على الجزائريين خاصة اجتماعيا من خلال تفشي عادات وسلوكيات غريبة على المجتمع الجزائري المحافظ التقليدي بما يتنافى والدين الاسلامي، إلى جانب تناقص انتاج الحبوب وانتشار الفقر في ظل تنامي ثروة الكولون والطبقة الموالية من الجزائريين

مما كرس نوعا من الاعدالة الناتج عن توجيه الاقتصاد الجزائري حسب متطلبات السوق الخارجية، كما أن أغلب هذه المنتجات موسمية مما أدى إلى تفشي بطالة موسمية في صفوف الفلاحين الجزائريين.

ما تجدر الإشارة إليه هنا أن كل هذه الانجازات كانت تصب في صالح الكولون بنيت على كاهل الجزائريين وبسواعدهم وبأموالهم فعلى حد قول عدي الهواري : "كانت ميزانية الميتربول .. تحرص على تغطية نفقاتها بواسطة الضرائب المحلية والتي كان تحصيلها يستوجب قمعا للسكان المحليين، فهؤلاء هم الذين مولوا مصاريف بناء الطرق والمرافق والبنى التحتية الأخرى"³³. في حين تحولت الجزائر ككل إلى حقل تجارب لاسيما في المجال الزراعي وغدت على حد قول أجبرون "مكان توظيف أو مضاربة أكثر منها جهة رواد، فالمستوطنون لم يرسخوا أقدامهم فيها كليا قط، فكانت الزراعة في نظرهم مشروعا أكثر منه نمط عيش"³⁴ وفي المقابل تعززت الثروة في يد الكولون بالخصوص لدى الرأسماليين "وقد نتج عن هذا التحول ظهور طبقة ثرية أخذت على عاتقها استغلال الفلاحين الجزائريين من جهة واستغلال ورقة الاستيطان من جهة أخرى، ومن المعلوم أنها تتطلع بدورها كطبقة رأسمالية إلى توجيه نظام الاستيطان نحو الاستغلال الخاص والمريح"³⁵. فعلى سبيل المثال أصبح المعمر ايسكالابس Esclapez والذي يعد من المستوطنين الأوائل صاحب ملكيات زراعية شملت الأشجار المثمرة ومن أول مزارعي الكروم والتي بلغت مساحته 69هـ بغليزان سنة 1893م في المنطقة إلى جانب استثمارات صناعية الواسعة، والتي امتدت الى غاية أحفاده بالمنطقة. إلى جانب المعمر كيسادا Cussade التي شملت ملكياته أراضي زراعية واسعة خصصت لمختلف المزروعات وتربية المواشي. واستطاع المعمر

جاستانفوك Justin Foucard من غليزان الاستفادة من مناقصة علمة
نظمها بلدية غليزان بتاريخ 1892-01-22 لتأجير مساحة 1.740 هـ و11
أر انطلاقا في سبخة سيدي بوزيان انطلاقا من 1892-02-13 لمدة 12
سنة³⁶. خصصت له من طرف الدولة للاستثمار فيها تنتج سنويا من
600 إلى 800 طن من الملح الخام، وقد أنشأ المعمر ذاته العديد من
المباني مرتبطة بالسكة الحديدية وهران الجزائر لتسهيل عملية الشحن.
كما منح المعمر بيليا Jaques Bellial مقاول يقطن بغليزان العديد من
التسهيلات لمجموع أشغاله المتعلقة بالاسمنت والقنوات والأنابيب
والبلاط ...³⁷.

ومن هنا نجد أن جل الأنشطة الاستراتيجية الصناعية والزراعية تركزت
في يد الكولون بالمنطقة ككل مما أدى إلى اتساع ثروتهم وما تجدر
الإشارة إليه أن أغلبهم شغلوا أيضا المناصب الادارية كرؤساء
ومستشارين بالبلديات والمجالس المحلية. مما عزز دورهم ورسخ
هيمنتهم بالمنطقة ولم يقتصر الأمر فقط على غليزان. ففي مجال
المقاولات بيلل نجد أزاريو Azario ودي لبورغ Delboug وقال³⁸ Gallet
وبجديوية نجد المعمر باسيرو Paseron وأجونس Agence وإيليان³⁹ Elienne
لما تجارة الحبوب فقد كانت في الغالب في يد اليهود وبعض الكولون
بالمنطقة فعمي موسى نجد المعمر بن حاييم موسى⁴⁰ Ben Haïm Moise،
وبجديوية نجد حانون Hanoun⁴¹ وبن توليبا Bentoliba وربوح Reboh.

وبغليزان نجد إلى جانب ايسكلاباس Esclapez اباكسيس
مردوخي⁴² Abecassis Mardoché ما يتضح هو الدور السياسي
والاجتماعي والاقتصادي الخطير الذي آلت إليه هذه الفئات الدخيلة
ذات الأصول الأوروبية بالمنطقة، يقابلها تهميش السكان الأصليين وفق
منطق كولونيالي وكضحايا للأوبئة وسنوات القحط والمجاعة والعقاب

الجماعي تحول الجزائريون إلى بروليتريا كادحة في مزارع الكولون وفي المدن حيث سكن جلمهم الأحياء الهامشية.
والجدول التالي عينة للتشكيلات السكانية التي سكنت غليزان ما بين 1896-1886 :

أصل السكان	عدد السكان سنة 1886	عدد السكان سنة 1896
الفرنسيين الأصليين والمجنسين	1.004	1.188
الاسرائيليين المولودين والمجنسين مرسوم كريميو 1870	215	.193
الاسرائيليين المجنسين	108	279
العرب - القبائل - المزابيت	2.371	4.037
جنسيات مختلفة	1.952	1.911
التونسيون وآخرون	610	257
مجموع السكان	6260	7.865

المصدر:

- Ababie , Louis , Relizane de ma jeunesse ,E.J.G , Nice . 2001 . p, 52 .

الخلاصة

تفنت الإدارة الاستعمارية في إيجاد العوامل لإنجاح مشروعها الاستيطاني بإحداث تغيرات في طبيعة المناطق وساكنيها وحتى تسمياتها وفرنسة الأمكنة وتغيير معالمها. انطلاقا من استقدام الأوروبي من الشتات وتوطينه بالأرض عنوة، وتشيد العمران الذي يحاكي الطابع العمراني والمنشآت الأوروبية من أجل خلق مستعمرة فرنسية أوروبية بعلم فرنسي، من خلال ترسانة القوانين الجائرة والأعمال الإنسانية الابدائية التي طالت الانسان الجزائري الذي تعددت أشكال رفضه لهذا الوجود. ترجمتها المقاومات الشعبية والانضواء تحت لوائها والأعمال الفردية التي وصفها التقارير الفرنسية باللصوصية، وأيضا حملة الاحتجاجات من خلال تقديم العرائض. ولقد أحدثت هذه السياسة

انقلابا في التوازن الديمغرافي بهدف التغلب العددي وفي المقابل أدت إلى تحقيق الرفاهية جسديتها تلك الجهود بهدف تحسين الظروف الصحية والاجتماعية والتكيف مع الوسط الطبيعي والمناخي والدعم المالي والمعنوي للكلون، وبالأخص مع توافد سكان مقاطعتي الألباس واللون إلى المنطقة ممن أصبحت لهم سلطة القرار والتمتع بالاستقلالية المالية والنيابية وحياسة العقارات والاستحواذ على جل القطاعات الاقتصادية وثروات المنطقة .

الهوامش والحواشي

- 01- Goldzeiguer (Annie Rey), le royaume arabe, la politique algérienne de Napoléon III 1861-1870, Alger, S.N.E.D , 1977,p:340.
- 02- أجيرون(شارل روبري). تاريخ الجزائر المعاصرة. ت: عيسى عصفور، ط02. دم.ج. الجزائر 1982.ص:86.
- 03- Leroy Beaulieu,(Paul), L'Algérie et la Tunisie , pais 1887,P: 96.
- 04-Op,cit,p:154-155.
- 05- Ibid ,p:155.
- 06- Tableau de la situation de l'établissement Français dans l'Algérie1847-1849, imprimerie royale, Paris.p:320.
- 07-Goldzeiguer, (Annie Rey), Op,cit,p:588.
- 08- بن داهة (عدة). الاستيطان والصراع على ملكية الأرض 1962-1830 الجزء الأول رسالة دكتوراة جامعة وهران 2010.ص:464.
- 09- Abadie, (Louis), Relizane de ma jeunesse ,E.J.G , Nice . 2001 ,p:41.
- 10-(Archives –les –de commune d'El Matmar, Wilaya de Relizane)..
- 11- Goldzeiguer, (Annie Rey), Ibid ,p:611.
- 12- أحيدة، عمراوي : آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1945-1830، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1945.الجزائر 2007.ص:63.
- 13-A.N.O.M :St-Aimé, 1M22,18-07-1869.
- 14-D.A.W.O:3R29,Service des eaux :Relizane 1850-1870,Mostaganem
- 15- D.A.W.O:3R29,Service des eaux :Alger,19-08-1862.
- 16-Bulletin de comice agricole de Relizane,N22,Année 1895,Mostaganem1896,P21.
- 17-Ibid,p 21.
- 18-Esclapez Vincent : Relizane surnommée la "Petite Cayenne d'Algérie" sa création en un siècle de colonisation 1853-1956 ,Oran ,1957,p 118.
- 19-أرشيف (الشخصي) للمؤرخ الحكيم بوغنائي بمدينة غليزان 1869-07-19.
- 20- Thintoin (Robert) : Bulletin de la société géographie et d'archéologie de la province d'Oran : la plaine de Relizane avant l'irrigation ,1950. p 18.
- 21-أرشيف المؤرخ الحكيم بوغنائي:09-07-1869.
- 22- Thintoin,Ibid ,p:20.
- 23--Le Courier de Mostaganem 28-09-1876.N 800.
- 24- Bulletin de comice agricole de Relizane,N22,Année 1895,Mostaganem1895,p 4.
- 25- Sempé (Henri): Régime économique du vin, thèse pour le doctorat 25/06/1898.faculté de droit de l'université de Bordeaux, Bordeaux 1898.p 552.

- 26-A.N.O.M,2M ,Inkerman,projet d'agrandissement du centre d'Inkermann ;rapport de la commission des centres,13-07-1876.
- 27-L'annuaire Oranais, Industriel, Commercial et agricole de département d'Oran ,3 e mm Edition 1893,Oran,p 361.
- 28-Op,cit .p365.
- 29-Ibid,p364.
- 30-Ibid,p371.
- 31-Abadie(L),Ibid, p 11.
- 32-Bulletin de la comice agricole de Relizane,N22,1895,p 03.
- 33- عدي، (الهوري)، الاستعمار الفرنسي وسياسة التفكك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1962، ت: جوزيف عبد الله ، ط01، دار الحداثة، بيروت، 1983.ص:186.
- 34- أجبرون،(شارل روبر) نفسه، ص. 89.
- 35- دادة (محمد)، السياسة الاستيطانية في الجزائر 1852-1870، رسالة دكتوراة جامعة وهران 2002. ص. 221.
- 36- Indépendant-L' de Mostaganem, première année, N, 09, samedi 27-12-1892.
- 37-Bulletin de comice agricole de Relizane ,N ,20, 1893,Oran, p28..
- 38-Annuaire- L' Oranais..., p:359.
- 39-Ibid,p:359.
- 40- Ibidem,p 353.
- 41- Ibidem ,p359.
- 42- Ibidem,p 362.